# 3. من الكبوة إلى الثورة : «الجغرافيا الجديدة»

لا يخفى على أحد ما صار إليه أمر الدنيا بعد الحرب التي رجت الأرض رجّاً حتى انقلبت الموازين، كل الموازين، واختلت التوازنات : في السياسة والاقتصاد والاجتماع... الخ. وهكذا أصبحت العلوم الاجتماعية، بدون استثناء تواجه واقعاً جديداً ومعادلات أكثر تعقيداً، فراحت تراجع نفسها وترتب أوراقها. والجغرافيا لم تشذ عن القاعدة.

فخلال عقدين من الزمن، من الخمسينات إلى السبعينات، ستعيش الجغرافيا مخاضاً عسيراً، تتجرع مرارة المراجعة وتكابد ألم التمزيق. فمع نهاية الحرب خيم شعور عام بالقلق وعدم الرضى على وضع المادة سرعان ما استحال إلى أزمة حقيقية تمخضت عنها حركة نشيطة تدعو إلى الإصلاح وبناء جغرافيا جديدة[1].

1

«الجغرافيا الجديدة» تعبير جاء على لسان پيتَر چُولْد (Peter Gould) في مقال نشره سنة 1969 تحت عنوان : The new geography : where the action is.

## 1 ـ أعراض «الأزمة» وعلامات التغيير

### 1.1 ـ على أعتاب عالم جديد

#### 1.1.1 ـ المدارس الجغرافية كيانات آيلة إلى الانهيار

لقد قامت المدارس الوطنية اعتماداً على مفاهيم أساسية زاوجت بعضها ببعض بمقتضى ما يمليه عليها واقعها الخاص. فإذا كانت الجغرافيا الفرنسية تعير اهتماما لقضية الكثافات وتوزيعها وتعطي الأسبقية للريف وتوظف التاريخ باستمرار، فلأن البلاد لم تكتمل بعد مراحل التطور والتحديث بحيث ما تزال تحتفظ بتقاليد إقليمية راسخة. أما الجغرافيا

الألمانية فهي عموماً تعالج مجالات شبيهة لكنها تستبدل التفسير السلالي بالتفسير التاريخي. بينما في أمريكا انصب اهتمام مدرسة مِيدَل وِسْت على أوجه النشاط الاقتصادي وتخصصاته في ظروف لم تتعقد بعد؛ في الوقت الذي جعلت فيه مدرسة بِركْلي من تحليل المشهد الحضاري منهجاً فعالًا يعقد المقارنة بين المجتمعات الهندية المعاصرة والحضارات البائدة التي أصبحت الحفريات وعلم الآثار يعملان على بعثها.

فطالما ظلت الأوضاع على حالها كما كانت قبل الحرب، أي طالما لم يطرأ تغيير جذري في المجتمع والمكان، أمكن الاستمرار في تطبيق المناهج التقليدية للبحث. فإذا كان «البِركْليون» قد وجدوا في منهج سَاوِرْ ما يغنيهم عن الابتكار والتجديد فإن الفرنسيين، وخاصة منهم أولئك الذي أولوا اهتمامهم للمناطق المدارية، وجدوا أن المنهج الفدالي قادر على توجيه البحث رغم ما يميز هذه المجتمعات المدارية عن الأرياف الفرنسية. فالبحث ينطلق من خريطة الكثافة ثم يتدرج إلى تحليل أنماط العيش ليخلص إلى إبراز المشاهد المطابقة لها. وبذلك تنكشف أسرار التنظيم المكاني. وبالفعل هذا ما قام به بنجاح لا ينكر عدد من الدارسين لبلدان من مختلف القارات[2].

لكن الفقراء وعالمهم الثالث المتخلف الذي وجد فيه الغربيون موضوعاً جديداً وخصباً لن يغني الجغرافيا عن مواجهة الواقع الطارىء والتصدي لرياح التغيير التي أخذت تهز أركان المدارس الوطنية.

### 2.1.1 ـ مستجدات تحث على التطوير

تمثل المرحلة المتراوحة بين الحرب العالمية الأولى ومنتصف القرن في الغرب مرحلة تنمية بطيئة في الجملة، اللهم ما كان من فترة رخاء نسبي لم تتجاوز عقداً واحداً من الزمن في العشرينات. ويعني هذا أن المجتمعات والأمكنة لم تتعرض لتقلبات فجائية وتطورات عميقة. لذا بات الجغرافيون يمارسون عملهم على طريقتهم المألوفة المبنية على الوصف والتأويل.

لكن عندما يجنح المجتمع إلى التطور ويعمل على مواكبة العصر سيجد هؤلاء الجغرافيون أنفسهم عزّلًا، لا حول ولا قوة لهم : فلا تحليل

2

من أبرز هؤلاء الباحثين الفرنسيين الذين عكفوا على دراسة مشاكل الأقاليم المدراية.

Robequain (Charles) **Le Than Hoa, Etude géographique d'une région annamite,** Paris, Publications de l'Ecole française d'Extême — Orient, 1929, 2 vol, 636 p.

Gourou (Pierre), **Les paysans du delta tonkinois, Etude de géographie humaine,** Paris, Editions d'Art et d'Histoire, 1936, 666 p; id **L'Afrique,** Paris, Hachette, 1970, id **Leçons de géographie tropicale** Paris, Mouton, 1971, 323 p.

Monbeig (Pierre), **Pionniers et planteurs de Sao Paolo,** Paris, A. Colin, 1952, 367 p.

Pélissier (Paul), **Les paysans du Sénégal, les civilisations agraires du Cayor à la Casamance,** Saint Yrieix, Fabregue, 1966, 939 p.

Sauter (Gilles), **De l'Atlantique au fleuve Congo. Une géographie du sous-penplement,** Paris, la Haye, Mouton, 1966, 2 vol, 1104 p.

Gallais (Jean), **Le delta intérieur du Niger, Etude de géographie régionale,** Dakar, ifan, 1967, 2 vol, 621 p.

أنماط العيش ولا وصف المشاهد الحضارية ولا استقراء خرائط استعمال الأرض بقيت أدوات فعالة. فهي أصبحت قاصرة لا تستطيع استجلاء حقيقة الأمور لأنها لا تلائم التنظيمات الحضرية والصناعية الحديثة التي انطلقت مباشرة بعد الحرب.

ومن أهم المستجدات التي ميزت هذه الطفرة الإنمائية في الغرب : الحاجة الماسة إلى التخطيط. فلا بد من توقع المستقبل والاحتساب له لتفادي المشاكل وتجنب المعوقات وكل ما من شأنه أن يخلخل التوازن؛ ناهيك عن التطورات الهائلة التي يعرفها قطاع التعمير والإسكان وتزايد دور النقل. هذا في الوقت الذي برزت فيه بحدة مشكلة عدم التوازن بين مختلف جهات البلاد : فمنها النشط الذي يستقطب الصناعة ويحقق الرفاهية الاجتماعية، ومنها ما فاته ركب التصنيع فبات إقليماً متأخراً إن لم يكن فقيراً.

فما موقف الجغرافيين من كل هذا ؟ لعل الشباب منهم أقوى شعوراً وأكثر إحساساً. فهم على بنية تامة من أمرهم. لكنهم بقدر ما يرغبون في الادلاء بدلوهم ومد يد المساعدة لحل المشاكل المطروحة بقدر ما يشعرون بالعجز لقلة تأهيلهم وهشاشة علمهم. ولا شك أن هذا الشعور المَرير كان من بين الأسباب الكبرى التي دفعتهم إلى التفتح لتجديد الزاد، خاصة وأن ظروف مواتية.

### 3.1.1 ـ انفتاح الجغرافيا وتواصل الباحثين

لقد اقتنع الجغرافيون، أو جلهم، بضرورة الخروج من قوقعتهم وفكّ رباط عزلتهم من أجل حماية جمع صفوفهم والدفاع عن بادتهم فأخذوا ينتشرون وينتقلون أكثر من ذي قبل، خاصة وأن الطيران أخذ يسمح بذلك حيث أصبح من الممكن السفر إلى بلدان نائية قصد البحث أو الدراسة أو كلاهما معاً. وهكذا ذهب الناطقون بالفرنسية إلى ما تبقى من المستعمرات القديمة، بينما استقر عدد كبير من الباحثين البريطانيين ببعض المستعمرات أو راح يقضي بعض الوقت في الجامعات الأمريكية مدرسين أو طلبة.

وقد لا يخفى ما أصبح للغة الانجليزية من شأن كبير في ربط الاتصال بين الباحثين وترويج الأفكار عبر معظم أقطار المعمور. فلأول مرة يتوفر أكبر عدد من العلماء، من مختلف المشارب، يستعملون نفس اللغة. وهذا ما جعل الآراء والمعلومات والمناهج تتداول بكل سهولة. فهل تصمد التقاليد الوطنية بعد هذا ؟

وفي الوقت الذي أخذت تتعدد فيه الروابط بين المهتمين عبر قنوات تتنوع وتتعدد يوماً بعد يوم، خرجت الجغرافيا، وإن على استحياء، من برجها العاجي لتلتقي بغيرها من العلوم، خصوصاً منها الاجتماعية، التي سرعان ما افتتن ببغضها نفر من الجغرافيين المتعطشين إلى التجديد والاصلاح بسرعة.

### 2.1 ـ البعد الاجتماعي في الجغرافيا

#### 1.2.1 ـ بين النزعة التاريخية والنهج الاقليمي

إذا كان الجغرافيون الفرنسيون والألمان في الثلاثينات يميلون شيئاً ما إلى تناول بعض القضايا الاجتماعية عن طريق اللمس التاريخي[3]، فهذا لن يظل حكراً عليهم وحدهم، بل أصبح أمراً شائعاً أيضاً بين الانجليز تأسياً بأعمال **كْلِفُرد دَارْبي***، الذي وضع منذ سنة 1936 كتاباً حول الجغرافيا التاريخية لأنجلترا ما قبل عام 1800[4]، أو بسَاوِرْ الذي عُني كثيراً بالمسألة[5]. والحقيقة أنه قد يصعب على الباحث الذي يعرض لتطور الأحداث أن يغفل البعد الاجتماعي لظاهرة التوزيع كما في موضوع الهياكل الزراعية مثلا التي غالباً ما يؤكد البحث على ثباتها وديمومتها. فإذا كان الأمر كذلك أفلا يرد ذلك إلى أوضاع المجتمع ؟

إن الظاهرة الاجتماعية لما كبر شأنها وعظم أمرها أصبحت مدعاة لكثير من الجغرافيين للعودة إلى التأمل في القضايا الجوهرية التي طرحها السابقون في بداية القرن. وهكذا عاد بعضهم في فرنسا إلى التحليل الاقليمي مثل **أنْدرِي شُلّي***، الذي انكب أيضاً على مسألة تعدد المفاهيم الجغرافية المتداولة محاولًا تنظيمها واستجلاء مضامينها[6]. ونجد نفس الهاجس

3

بالنسبة للجغرافيا الفرنسية يمكن الإشارة في هذا الباب إلى ثلاث دراسات أساسية :

Bloch (Marc), **Les caractéres originaux de l'histoire rurale française,** Oslo Institut pour l'étude comparée des civilisations, 1931, 2eme édit. Paris, A. Colin.

Roupnel (Gaston), **Histoire de la campagne française,** Paris, Grasset, 1932.

**Dion (Roger), Essai sur la formation du paysage rural français,** Tours, Arrault, 1934.
2eme édit. Paris, A. Colin.

هذا ويجدر التذكير بأن فدال دُلبلاش اعتاد، في كل دراساته، وضع الاقليم في سياقه التاريخي.

* **Clifford Darby**

4

Darby (Clifford) **An historical geography of England before A.D. 1800,** Cambridge, Cambridge University Press, 1936.

5

Sauer (Carl), **Foreward to historical geography,** Annals, Association of American Geographers, vol, 31, 1941.

6

Cholley (André), **Guide de l'étudiant en géographie,** Paris, P.U.F. 1942.

* **André Cholley**

عند بعض الأمريكيين ومنهم **درْونْت وتْلْسي***، الذي قام بدراسة تعرض فيها لمفهوم الإقليم[7]. وفي الواقع ليس اضطراب المفاهيم السبب الحقيقي في قصور الجغرافيين وعجزهم عن مسايرة المجتمع وانشغالاته، بل السبب الحقيقي يكمن في ضحالة الفكر وغياب تصور متكامل للجغرافيا.

### 2.2.1 ـ اجتهادات في التأصيل

شعوراً بهذا القصور نهضت جماعة من الدارسين يعيدون النظر في المادة بغية ضبطها وتدعيم أركانها. ولقد كان هَرتشورْن سباقاً إلى المبادرة حيث فتح باب الاجتهاد منذ سنة 1936 بكتاب طبقت شهرته الآفاق[8]. فهو يستحسن رأي هِتْنِر[9] ويؤكد بدوره على ضرورة التحليل الاقليمي لكن مع مرونة أكبر تبيح الدراسة المنسقة وتشجع على بناء جغرافيا بشرية عامة. ولقد هاجم هرتشورن المدارس التي تعطي الأسبقية للجانب البيئي، الذي يخلق في رأيه التناقضات ويترك الثغرات فتبقى الدراسة حبيسة موضوع العلاقات بين الإنسان وتلك البيئة. كما أنه بيَّن مواطن الضعف في الجغرافيا المشهدية التي قلّما تتجاوز مرحلة الوصف السطحي.

وفي فرنسا نجد **مُوريس لُولانو*** يعبر عن نفس الشعور إزاء الجغرافيا التي تفتقر في نظره إلى الدقة وتشكو من نقائص شتى. لذا نراه يتخلى نهائياً عن فكرة اعتبار الجغرافيا علماً من العلوم الطبيعية، لكن دون أن يجعل منها بالمقابل علماً اجتماعياً. فالجغرافيا عنده تأمل حول مصير الإنسان، أي فلسفة موضوعها الإنسان الذي يعمر هذا الكوكب. ولا شك أن هذا الموقف قريب من بعض الفلسفات الوجودية الرائجة آنذاك، غير أن لُولانو لا يرجع لا إلى **هَيْدِجَر** أو **مِرْلو بُنْتي*** أو غيرهما، بخلاف زميله **إريك دَرْدِلْ***[10]، الذي تأثر كثيراً بهذه الفلسفات[11]. ومهما يكن من أمر فإن هذه الاتجاهات لا تسير نحو فهم الحقائق ومواجهة متسجدات العصر وبناء علم متفتح على المستقبل. فالأمر يحتاج مزيداً من التعميق والتأمل.

ومن المجتهدين المرموقين الذين عملوا على تطوير الجغرافيا وجعلها علماً متماسكاً الفرنسي **مَاكْس صُور***. وقد يتلخص رأيه في استبدال رؤية تأليفية للمقومات الحيوية للجغرافيا البشرية بالتحليل البيئي التقليدي،

* **Derwent Wittlesey**

7

Wittlesey ( Derwent ), **The regional concept and the regional method,** in P.E. James, J.K. Wright ( edit ) American Geography, Inventory and prospect

8

( سابق ) The nature of Geograpy الذي راجعه المؤلف في الخمسينات لكن دون مسّ اتجاهاته الأساسية.

9

لقد قضى هِتنر ( 1859 ـ 1941 )، كما هو معلوم، سحابة حياته العلمية مهتما بقضية المنهج ومتسائلاً عن غاية الجغرافيا ومصيرها. ونتذكر أيضا أن هتنر يعتبر الجغرافيا وصفا لاختلاف سطح الأرض. فهي في رأيه تاريخ طبيعي ( أي دراسة ما يعمر الأرض من كائنات ) أكثر مما هي علم عقلي. ويعني هذا أنها دراسة أحادية تبرز الخصوصيات المكانية أكثر مما هي معالجة تعميمية تهتم بالانتظام.

* **Maurice Le Lannou**

* **Merleau Ponty**

* **Eric Dardel**

10

Dardel (Eric), **L'homme et la terre. Nature de la réalité géographique,** Paris, P.U.F, 1952, 134 p.

11

Besse (Jean - Marc ) **Lire dardel aujourd'hui,** l'Espace Géographique, n°1, 1988, pp 43-46.

* **Max Sorre**

وذلك بتنسيق منهجي لكل ما حصلت عليه الجغرافيا، خلال نصف قرن من الزمن، من نتائج في ميدان الدراسات البيئية. فهو إذن يعتبر الجغرافيا مادة تدرس دراسة تأليفية موضوع الإنسان والأرض لكن مع التأكيد على دور التقنيات فيه من جهة، ووضعه في سياقه التاريخي من جهة أخرى، دون إغفال بعض الجوانب الأخرى التي بدونها لا يكتمل فهم توزيع السكان كالنقل وأشكال المخالطة البشرية. ورغم هذه المحاولة الجادة لم يفلح ماكْس صُور في ضم جميع هذه العناصر وتنسيقها ليبني بها صرحا متكاملاً. فهذه الجغرافيا لم ترق إلى مستوى العلم الاجتماعي حتى لو أن صاحبها عمل جاهداً على تحسين الأدوات وضبط المفاهيم حيث نافش مثلا فكرة نمط العيش التي أظهر مزاياها وحدودها.

### 3.2.1 ـ محاولات التطوير

عرفت بداية الخمسينات من هذا القرن حركة دائبة بذلت فيها جهود ترمي كلها إلى تجديد الفكر الجغرافي. والشيء الذي يلفت النظر أن هذه المساعي كلها على وعي كبير بما يجري على ساحة المجتمع. فإذا كان الألمانيان **هانس بوبِكْ*** و وُلفجَنْج هَارْتك يستقرئان المشاهد وتنظيم المكان فيميطان اللثام عن فعل المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته، فإن **پيير جورْج*** الفرنسي يسير إلى أبعد من ذلك إذ جعل من تحليل الآليات الاجتماعية شرطاً أساسيا لفهم المدينة وعلاقتها بالأرياف، سواء تعلق الأمر بالبلدان الزراعية التقليدية أو الصناعية المتطورة. ويقوم هذا التحليل على تسخير المنهج الماركسي. وهو منهج ينبه بالفعل إلى عدد من الجوانب المهمولة أو المجهولة، إلا أنه بالمقابل لا يعطي للمسألة الاجتماعية بُعدها المكاني الحقيقي لأن المعالجة الماركسية آنذاك لم تقم وزناً يذكر لعامل المسافة وخصوصية المكان وذاتية إدراكه عند الفرد. فالجغرافي الماركسي يهتم أساساً بتدقيق نمط الإنتاج والتعريف بالطبقات المتصارعة وقياس قوى الإنتاج. وبهذا يتحقق هدف البحث وتكتسب الدراسة القدرة على التفسير الشافي. لكن هذه الجغرافيا البتراء لا تأتي في النهاية بجديد، فأقصى ما

* Hans Bobek

* Pierre George

تبلغه من العلم هو إثباتها لوقائع بادية، إذ من اليسير أن يتحدث أي امرىء عن الفوارق الاجتماعية والحيف والظلم. فهي حينما سلخت الظاهرة الاجتماعية عن المكان حكمت على نفسها بالعقم والفشل الذريع. فأنى لها إذن أن تعطي التفسير وترسم المستقبل !

وعلى كل حال فإن الجغرافيا ما بين الأربعينات والخمسينات ما تزال تبحث عن الطريق لإثبات هويتها. فهي وإن ركبت مطية المجتمع وعنيت بآلياته ودورها الفعال تظل رغم ذلك عاجزة كل العجز عن مراجعة مفاهيمها الأساسية وتقويمها. لذا فكل محاولات التجديد جاءت مخيبة للآمال. هذا في الوقت الذي أصبحت فيه الساحة الفكرية والعلمية تنشط من جديد. فهل تواكب الجغرافيا هذا الركب ؟

## 2 ـ الجغرافيا في محيطها العلمي الجديد

شهدت الساحة الفكرة الغربية في العقدين المواليين للحرب أحداث هامة وتطورات كبيرة تتلخص إجمالًا في أمرين : استكمال بناء فلسفة جديدة من جهة وإعطاء الأسبقية للتنمية الاقتصادية من جهة أخرى. ولقد طغت هذه الاهتمامات الفلسفية والاقتصادية، منفردة أو مجتمعة، على باقي العلوم الإنسانية. وفيما يخص الجغرافيا فهي تجنح نحو الاقتصاد ولا تولي اهتماماً يذكر بالقضايا الفلسفية.

### 1.2 ـ غياب عن النقاش الفلسفي

من الأسباب الرئيسية التي أبعدت الجغرافيين في هذه الحقبة عن المشاركة في المناظرة الفلسفية الدائرة آنذاك هو أن الفلاسفة عامة، وفلاسفة العلوم خاصة ( الابستمولوجيون )، لا يعتبرون الجغرافيا ركيزة من ركائز العلوم الاجتماعية. وهذا ما حجبها عن الأنظار وجعلها مجهولة لدى أغلبية المثقفين. وإذا وجد جغرافي متبصر يعنيه أمر الفلسفة الجديدة وما تطرحه من أفكار فعليه بالصبر كي يتحمل مشقة تناول مؤلفات صعبة قد تبدو

له عديمة الصلة بعمله. فقليل هم أولئك الذين كلفوا أنفسهم هذه المشقة وإن كانوا في الحقيقة يقصدون إشباع رغبة شخصية أكثر بما يرمون إلى تجديد رصيدهم العلمي. صحيح أن زمرة من الجغرافيين الشباب، كغيرهم من المثقفين، تحمسوا لمشاهير فلاسفة عصرهم أمثال **هسّرْل** و **هيدجر** و**سارتر*** و **فوكو**، لكن لم تنعكس قراءاتهم على أبحاثهم العلمية. وحتى إذا ما حقق بعظهم ذلك مثل إريك دَرْديل، الذي أغراه مذهب الظاهريات[12]، فالأمر يبقى مجرد حالة شاذة لا وقع لها في الفكر الجغرافي.

كما أن التيار الفلسفي الذي ظهر في العشرينات والمعروف بدائرة فيينا وهو الاتجاه الفكري الذي جاء يعدل الموقف حيال العلوم، لم يفلح رغم انتشاره في جل أرجاء العالم الأنجلو سكسوني، خاصة بعد 1935، في اقتحام قلعة الجغرافيا التي ظلت موصدة في وجهه إلى غاية الستينات. وربما يكون الأمريكي **فْرِد شايْفَر*** الجغرافي الوحْيد الذي عمل على توظيف الفلسفة الجديدة كما هي عند كارْل پوپَرْ وفلاسفة دائرة فيينا[13]. ولولا المقال الذي كتبه هَرتشُون يحاج فيه شايْفَر ويناقشه لباتت هذه المحاولة مجهولة. ثم بعد عشر سنين يأتي **وِلْيَم بُنْجي*** ليؤكد أهمية الحدث[14] وإن كانت آثاره أصبحت سارية المفعول.

ومع ذلك فلا يمكن أن نتحدث عن حركة تجديد حقيقية. فكل ما في الأمر أن بعض الجغرافيين من أمريكا وبريطانيا أخذوا، عند منتصف الستينات، يستندون هم بدورهم إلى الوضعية المنطقية الشائعة* أي مذهب دائرة فيينا الذي يعرف أيضاً بالتجريبية المنطقية[15]. وهو مذهب يعنى بلغة العلوم التي اعتبرها مسألة جوهرية لأنها هي التي يعتمد عليها العقل في تنظيم الملاحظات التجريبية. ورغم ذلك ظن البعض أن الجغرافيا تعيش ثورة علمية حقيقية. وأول من حاول من الجغرافيين تطبيق هذا المنهج الذي أخذ الكثير ينسج على مواله لم يفعل ذلك إلا في سنة 1969، وهو **دَيفِدْ هارْفي*** حينما نشر كتاباً نظر فيه إلى الكيفية التي يستفيد بها الباحث في الجغرافيا من المكتسبات المنهجية للعلوم الأخرى[16]. وهذا الانفتاح الجزئي، وإن كان غير قادر على تجديد الفكر الجغرافي، قد ساهم على كل حال في تطوير العادات لا سيما بعد نشر **طُومَس كُونْ*** مؤلفه المشهور

12

مذهب الظاهريات أو علم الظواهر «هو الدراسة الوصفية لمجموع الظواهر كما هي عليه في الزمان والمكان، وهو مختلف عن دراسة أسباب هذه الظواهر وقوانينها المجردة الثابتة، أو عن البحث في الحقائق المتعالية المقابلة، أو عن النقد المعياري لمشروعيتها».

* Phénoménologie

* Jean-Peaul Sartre 1905-1980

* Michel Foucault 1926

* Fred Schaefer

* William Bunge

«أ ــ إذا أطلق علم الظواهر على الدراسة النفسية أو الأحوال الشعورية دل على وصف المعطيات النفسية كما تبدو لنا بالفعل. ويختلف هذا العلم عن علم النفس القديم لحرصه على التقيد بالواقع وبعده عن كل تصور سابق أو غرض فلسفي».

«ب ــ وإذا أطلق اصطلاح علم الظواهر على دراسة ظواهر الوجود عامة، كان الغرض منه تحديد بنية الظاهرة ومعرفة الشروط العامة لحدوثها. ولهذا العلم مرحلتان : الأولى دراسة الظاهرة الواقعية

* Positivisme logique

* David Harvey

* Thomas Kuhn

دراسة وصفية وتحليلية، والثاني تفسير تكوين الظاهرة وبيان ماهيتها.»

«ج ــ وعلم الظواهر المتعالي (Phénoménologie transcendate) عند هسّرل هو الطريقة التي توصل العقل بالتحليل المتعالي إلى محاذاة شطر الشعور المحض المستقل عن المعطيات التجريبية أو إلى محاذاة شطر ( الأنا ) في سبيل تجديد بناه الأساسية وتبيين الخصائص الذاتية لكل ما يمكننا معرفته».

«بنائية الثورات العلمية»[17] سنة 1962، الذي لم ينقل إلى الفرنسية إلا بعد عشر سنوات من صدوره[18].

### 2.2 ـ الاقتصاد يلقح الجغرافيا.

### 1.2.2 ـ بوادر الاقتصاد الجغرافي

أظهر علماء الاقتصاد، كما هو معلوم، اهتمامهم بقضية توزيع الأنشطة منذ القرن الثامن عشر. لكن عدد هؤلاء المهتمين تقلص بشكل ملحوظ خلال القرن الموالي حتى انحصر في فئة قليلة من المتخصصين. ثم أصبح الموضوع يطرح من جديد في صدر القرن الحالي، خاصة بألمانيا والبلدان الاسكندنافية.

لكن الرؤية إلى الظواهر الاقتصادية ستظل رؤية جزئية تعنى بقطاع معين إذ المشكلة إذاك تتلخص في اختيار الموقع الأمثل للصناعة أو تعيين المكان المناسب للتجارة أو تحديد النظام الملائم للضيعة[19]. غير أن الأبحاث سرعان ما أخذت تتطور في الثلاثينات. وهكذا انكب بعض الباحثين على دراسة أنشطة القطاع الثالث التي كانت مهملة. وبالفعل استطاع الجغرافي الألماني **فَلْتِر كرِسْتَلِر*** والاقتصادي **أُجُسْت لوش*** لفت الأنظار، ولو بعد حين، إلى أحد الجوانب الأساسية للاقتصاد الجغرافي، حيث ظهر جليّاً ما لقطاع الخِدْمات من دور فعال في هيكلة المجال الجغرافي. وهكذا يكتشف الاقتصاديون أهمية البعد المكاني وبالتالي البعد الإقليمي للحركة الاقتصادية. وهو أمر لم يعهد إلا في جماعة قليلة من الاختصاصيين الألمان.

لكن علم الاقتصاد سيشهد خلال الحرب العالمية الثانية، وهو يسير على منهج **كَيْنَز***، تطورات هائلة من جملتها تحسين وسائل المحاسبة الوطنية التي تعاين الانتاج والدخل والتوزيع، وهي نفس التقنيات التي صارت تطبق في الخمسينات على وحدات ترابية أدنى كالأقاليم والمدن. وهذا ما جعل الاقتصاد يدرك أكثر ما للبعد الجغرافي من أهمية في مسألة التوزيع. ثم إن بعض علماء الإحصاء سبق أن تنبهوا مبكراً إلى ظاهرة الجذب الجغرافي كما

«د ـ ويطلق علم ظواهر الفكر (Phénoménologie de l'esprit) عند هيجَلْ على تحليل المراحل التي يمر بها الشعور في انتقاله من المعرفة الحسية إلى معرفة الذات حتى يبلغ درجة العلم المطلق».

«هـ ـ وعلم الظواهر الوجودي (Phénoménologie existentielle) هو العلم المشتمل على وصف ما يحيط بالمرىء من شروط واقعية تحدد موقفه، وهو مقابل لعلم الظواهر المتعالي.» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 35.

13

Schaefer ( Fred K.) **Exceptionalism in geography. methodological examination.** Annals, Association of American Geographers, vol 43, 1953; William Bunge, **Fred K. Schaefer and the science of geography,** Annals Association of American Geographers, Vol 45, 1955.

*** Walter Christaller**
*** August Lösch**
*** John Maynard Keynes 1883-1946**

14

Bunge ( William ), **Theoretical geography,** Lund, C.W.K, Glerrup, 1962, XOII, 210 p.

15

«الوضعية المنطقية اتجاه فلسفي معاصر يقوم على أساس التجربة ويعدها المصدر الوحيد للمعرفة، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها (نظرية إمكان التحقيق)، ثم تحولت إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم المختلفة». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 322.

في الهجرات مثلا، فربطوها بقوانين شبيهة بقانون الجاذبية[20]. فهناك من انطلق من هذا الحدس محاولًا تحديد نطاق النفوذ التجاري للمدينة كما فعل **وِلْيَمْ رِيْلِي** سنة 1929. كما أن توزيع المدن وترتيبها أصبح أحد المباحث الهامة خصوصاً بعد وضع قانون التراتب حسب الحجم المعروف بقانون **زِيف*** سنة 1949.

غير أن هذه المجهودات ستظل مبعثرة إلى غاية الثلاثينات حيث قام لُوشْ بجمعها وتلخيصها ودمجها في النظرية الاقتصادية العامة[21]. وقد تجدر الإشارة إلى العمل الذي قام به الأمريكي **إدْجَرْ هُوفَرْ***. وهو عمل وإن كان متواضعاً نسبياً فهو خليق بأن يلفت إليه أنظار الجغرافيين، لا سيما وأنه يعرض لمشاكل النقل والكلفة المترتبة عنه، وذلك ببساطة ووضوح. هذا في الوقت الذي يتناول فيه عالم الاقتصادي الفرنسي **كلُوذْ بُنْصار*** الموضوع تناولًا نظرياً أكثر منه معالجة تطبيقية، ساعياً بذلك إلى الخروج بنظرية عامة حول المواقع وهيكلة المجال الاقتصادي[22].

### 2.2.2 ـ « علم الأقاليم » يَحْفِز البحث الجغرافي

إذا كان لهؤلاء الباحثين البارزين فضل لا ينكر، ليس على علم الاقتصاد فحسب، بل كذلك على الجغرافيا، فكلاهما ربما يدين بأكثر من ذلك لعالم الاقتصاد الأمريكي **فَلْتَر إزَرْد***، الذي استفاد من أعمال لوش وأخذ عن هُوفَر منهجه في تحليل موضوع كلفة النقل ثم أغنى ذلك كله بأفكار جديدة حول الاقتصاد الكلي والمحاسبة الاقليمية ومسألة المضاعف الاقتصادي[23] من جهة، وطعمه بالنماذج الانجذابية من جهة أخرى، وهكذا نشأ علم «جديد» اصطلح عليه إزَرْد بـ «علم الأقاليم»*، الذي يجمع بين التنظير وإمكانية التطبيق عن طريق تهيئة التراب وإعداده.

وفي سنة 1956 أسس إزَرْد جميعة للتعريف بالاتجاه الجديد ونشر المعلومات المحصل عليها. وهكذا انضم إلى الجمعية كل من له صلة بالمكان الجغرافي وقضاياه، اقتصادياً كان أو معمارياً أو مخططاً أو جغرافياً، وإن كانت الجمعية في البداية لا تولي الجغرافيا الاقتصادية ما تستحق من

* William Reilly
* Zipf
* Edgar Hoover

16

Harvey (David), **Explanation in geography**, Arnold, London, 1969.

17

يتمتع طومَسْ كُون (المزداد سنة 1922) بتكوين علمي فذ يجمع بين تاريخ العلوم وفلسفتها. وذلك ما أهله لمناظرة الفلاسفة والهجوم على آرائهم ونظرياتهم حول العلوم. فهو يعارض معارضة شرسة أنصار التجريبية المنطقية الذين طغت أفكارهم على الأوساط الجامعية الأمريكية ولا يعير اهتمامه إلا لكَارْل بُوبِر الذي يقبل في الجملة تصوره لقضية تطور العلم ( وهو تعبير أصح في نظر كُون من تقدم العلم ). وهو تصور لا يتحقق في رأي كُون إلا في فترات وجيزة في تاريخ النشاط العلمي. ويعتبر كُون هذه الفترات الفريدة «فترات تأزم» و «توتر» نزاعة إلى «الثورة العلمية» ويقابل هذه الحركة «الشاذة» المسار العلمي «العادي». وهكذا مقابل الواحدية المعيارية (monisme normatif) عند بُوبِر يقترح كُون ثنائية «العلم العادي» التي

* Claude Ponsard
* Walter Isard
* The Regional Science

يؤسسها على مفاهيم «الشكل التحليلي» (أو النظرية النموذجية ـ paradigme ـ أي الرسم الذي يوضح باختصار شديد المفاهيم الأساسية في موضوع ما، مما يساعد على تقريبها للذهن) والحركة العلمية الفريدة والطفرة التي تواكبها.

إن الحركة العادية للعلم تتم بواسطة شكل تحليلي يتفق عليه في زمان معين

العناية. وهذا بالذات ما جعل الجغرافيين ينشطون أكثر داخل الجمعية ويجتهدون. فكانت ثمرة جهدهم تأسيس الجغرافيا الاقتصادية الرياضية التي صارت إحدى مباحث الجغرافيا النظرية. ولقد كان لهذا اللقاء بين الاقتصاد والجغرافيا وما رافقه من تلاقح الأفكار كما يقول **چَرِّسَنْ**[24] انعكاسات طيبة جددت الأفكار وطورت وسائل البحث كما تدل ذلك بالفعل الأطروحات التي نشرها فرع الجغرافيا بجامعة شيكاچو ابتداءاً من سنة 1948.

### 3.2 ـ تجديد العلوم الاجتماعية ونزعة نحو التنظير

#### 1.3.2 ـ ظروف الحرب تطور العلوم الاجتماعية

باستثناء الاقتصاد، عاشت العلوم الاجتماعية، إلى أن اندلعت الحرب، في قطيعة تكاد تكون تامة مع العلوم التجريبية كالإحصاء والرياضيات والفزياء والهندسة. ولا شك أن لهذه القطيعة أسباب شتى. غير أن صعوبة التنظير المنهجي في العلوم الاجتماعية تبدو أهم هذه الأسباب. لكن الوضع سيتغير مع الحرب التي استوجبت تسخير كل الطاقات وحشد جميع الامكانات المادية منها والمعنوية. وعليه أصبح العسكريون يستعينون بذوي الخبرة في ميادين الاقتصاد والإحصاء والرياضيات وغيرها لحل بعض المشكلات المعينة.

وبطبيعة الحال فإن عمل هؤلاء العلماء «الميدانيين» يختلف كل الاختلاف عن عمل زملائهم «الأكاديميين». فإذا كان هؤلاء لا يهتمون أساسا بتفسير الواقع ورسم صورته المثلى، فإن الآخرين منوطون بمهمة محددة تتلخص في المشاركة في تخطيط العمليات العسكرية والاعداد لها بدقة وعناية وتحديد كيفية استخدام الجند واستعمال العتاد المتوفر لتحقيق أهداف معينة. وهكذا استطاع المهندسون مثلا تطبيق بعض الأساليب الخاصة بالميدان التقني في المجال البشري كحساب الاحتمالات في تنظيم عمليات إنزال الجيوش. ولما انتهت الحرب استمر هذا التواصل بين العلوم التجريبية والعلوم الاجتماعية ليتعزز بفضل التقدم الباهر الذي أخذ يتحقق في ميدان المعلوميات إذ جاء الحاسوب يزود البحث الاجتماعي بطاقة جبارة

ومكان معين أعضاء محفل علمي معين فتكون تلك النظرية المهيمنة نموذجاً وبناءاً فكريا متماسكاً يجعلون منه أداة فاعلة في مواجهة القضايا والمشاكل التي تعرض لهم في الواقع. غير أن النظرية النموذجية المعمول بها معرضة باستمرار إلى التصادم مع حالات غير مرتقبة تستدعي الملاءمة والتطويع حتى يتقلص «الشذوذ» ويذوب بالتدريج في النظرية النموذجية. لكن قد يتصلب ذلك الشذوذ ويستعصي فيهدد النظرية النموذجية القائمة بالانهيار. وهنا تحدث «أزمة» تترتب عليها «حركة علمية غير عادية» تقوم ببناء شكل تحليلي بديل. وبالطبع فإن من شأن هذه الثورة العلمية أن تغير من نظرة الناس إلى العالم.

* **Torsten Hägerstrand**

18

Kuhn (Thomas), **La structure des révolutions scientifiques,** Paris, Flammarion, 1972, 246 p.

19

كما يدل على ذلك أبحاث **فُنْ ثُونَنْ (Von Thünen)** حول توزيع المزروعات (1826) واهتمامات **مَاكَس فيبرْ** بمواقع الصناعة (1909). ومن المعلوم أن لكل واحد منهما نظرية في الموضوع لن نحتاج لبسطهما في هذا المقام لكثرة شيوعهما وطرحهما في المؤلفات المتداولة بين الباحثين والطلاب.

20

Ravenstein (E. G), **The laws of migration,** Journal of the Royal statiscal Society, vol 48, 1885; vol 52, 1889.

21

Lösch (August), **The economies of location,** New Haven (Con,) Yale University Press, 1954.

لا عهد له بها ويمد الدارسين بنموذج منطقي ميسر.

ثم إن الأبحاث التي أجريت في الميدان العسكري أثبتت قدرتها على حل كثير من المشاكل التنظيمية كتسيير الموانىء والمطارات وخزن السلع والمؤن والتنبؤ بالحاجيات والمطلبات المقبلة، وذلك بتطبيق نظرية المحاكاة التي تكشف عن منطق اتخاذ القرار وان خفيت نوايا أصحاب القرار. وبجانب هذا فتح علم التنظيم الذاتي أو السبيرناطيقا* [25] آفاق أخرى في ميدان البحث. فعلاوة على التساؤلات الأولى التي أثارها حول النظم [26] وإمكانية الافادة منها بالنسبة لكل العلوم، ظهر على التنظيم الآلي كوسيلة فعالة في تدقيق الظاهرة الاجتماعية وضبطها.

ولعل هذه الاتجاهات الجديدة في ميدان البحث الاجتماعي تفيد الجغرافيين وتساعدهم على حل ما تراكم أمامهم من قضايا كقضية المواقع وتنظيم النقل أو تفاعل الأنشطة داخل بيئتها مثلا.

### 2.3.2 ـ الآمال العريضة

إن الأثر الحاسم لهذه الظروف لا ينحصر في تلك الانعكاسات التي سبقت الاشارة إليها بل يكمن بالدرجة الأولى في ترسيخ الاعتقاد بقدرة العلم الذي أسس بنيانه على نموذج الفيزياء. أفلا يمكن إذن، والحالة هذه، نسج ثوب للعلوم الاجتماعية على نفس المنوال فنعمم نفس المنهج ونطبق نفس الأساليب في البحث؟ لا سيما وأن هناك من الوسائل ما يسمح بذلك فالحاسوب يقوم بعمليات الفرز أحسن قيام، في حين تسمح الرياضيات والاحصاء العصري بصياغة الفرضيات وتدقيقها وفق النسق الفرضي الاستدلالي [27]، الذي أتى أكله في العلوم التجريبية.

فأين نحن من المنظور التقليدي للظواهر الاجتماعية وخصوصياتها التي لا تقبل التبسيط والاختزال، خاصة عند الجغرافيين ؟!

### 3.3.2 ـ البلدان الأنجلوسكسونية تتزعم القافلة

قد يجدر بنا أن نؤكد أن محاولات التطوير والتجديد التي ستشهدها الساحة الجغرافية بعد الحرب قد انطلقت من العالم الأنجلوسكسوني. ولا

22

Ponsard (Claude), **Economie et espace**, Paris, SEDES, 1955.

23

نظرية المضاعف نظرية اقتصادية مفادها باختصار شديد أن كل زيادة في حجم الاستثمارات المنتجة تترتب عنها زيادة للطلب تفوق كلفة الاستثمار.

24

Garrison (W.L), **Spatial structure of the Economy**, Annals, Association of American Geographers, 1959-1960.

25

علم التنظيم الذاتي Cybernétique هو «العلم الذي يدرس عمليات التحكم والتوجيه والحركة في الكائنات الحية والآلات على السواء. وبهذا العلم استطاع الإنسان أن يربط بين النظم الحية والنظم التكنولوجية وأن ينتج آلات تقوم ببعض العمليات الذهنية والعقلية التي كان ينفرد بها الإنسان دون غيره من الكائنات الحية».

«وعلى العموم فالسبيرناطيقا تقوم باستخلاص وتحديد وتصنيف وتعديل وإقرار قوانين الحركة التي تحكم نشاط الآلات والكائنات الحية، كوسيلة لاكتشاف وتصميم آلات تنهض بعمليات التوجيه الآلي، وتملك القيام بوظائف في بيئات وأوقات مختلفة تحول حدود وكفاءات الإنسان البيولوجية دون القيام بها.» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 94.

26

عرّف برتلنفلاي Ludwig Von Bertalanfly، وهو أول من صاغ نظرية الأنظمة العامة سنة 1950، النظام بقوله : «هو مركب من تفاعل عناصر «ب 1» و «ب 2» و «ب 3». والتفاعل يعني أن هذه العناصر تشترك في علاقات معينة ( ر ). وبهذا فإن سلوك العناصر في ( ر )

غرابة في ذلك إذ في هذه البلدان بالذات أنجزت تلك الأبحاث خدمة للحرب. وهي أبحاث غيرت تغييراً جذرياً الرؤية إلى العلوم الاجتماعية وأعطت لقضية المنهج اهتماما خاصا، وإن كان شيئا ما على حساب الظاهرة الاجتماعية نفسها. وقد يرد هذا الأمر على ما يبدو لسببين رئيسيين : الأول يتمثل في سير المجتمع الأمريكي في اتجاه معاكس للنموذج التقليدي تحت تأثير أفكار **فرويْد** التي انتشرت انتشاراً وتغلغلت في أعماق المجتمع برمته، أما الثاني فهو التفاؤل المفرط الذي خيم على العلماء الذين راح جلهم يؤمن إيماناً قوياً بقدرة التكنولوجيا على مد المجتمع بكل ما يحتاجه وحل مشاكل كل شرائحه دونما اضطراب أو عنف. ويرى بعض الدارسين في هذا التصور تطبيقا صريحاً للمذهب السلوكي*[28]. وهو تصور ذو شقين : أحدهما منهجي والآخر نظري. وبهذا يحدث الانفصال بين الفكر الاجتماعي الأنجلوسكسوني والأوضاع الأوروبية ذات النزعة التقليدية. فلابد إذاً من استحضار هذه الحيثيات إن نحن أردنا فهم حركة التجديد.

## 3 ـ ملامح الجغرافيا الجديدة

### 1.3 ـ التباشير

كان فِرِدْ تشايْفَر أول من أقدم في بداية الخمسينات على نقد الجغرافيا التقليدية نقداً منهجياً من خلال كتاب خلف صدى عميقاً، خاصة في نفوس الباحثين الشباب[29]. ثم إن السويد التي لم تكتوِ بنار الحرب عرفت تطوراً ملحوظاً في ميدان العلوم الاجتماعية كما هو الشأن بالنسبة للاقتصاد الجغرافي الذي أصبح بين الحربين مادة يهيمن عليها السويديون والألمان. ولقد دأب الباحثون في هذا الميدان على تدقيق المراجع والمعلومات والاعتناء بتحليل الظواهر من حيث سياقاتها وآلياتها.

وفي خضم هذه الاهتمامات التي تشكل مدرسة حقيقية، يبرز عَلم من أعلامها الكبار وهو السويدي **هاجَرسترانْد***، الذي أخذ منذ الأربعينات يهتم بقضية هامة تتلخص في علاقة الريف بالمبتكرات التقنية وكيفية انتشارها. ولدراسة هذه الظاهرة الجغرافية جمع هاجرسترند

مخالف عن سلوكها في حالات أخرى ( ر 1 ) مثلا »

Bertlanfly (L. Von), **The theory of open system in Physical and Biology,** Science III, 1950.

عن محمد علي الفرا، **مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية**، الوكيت، وكالة المطبوعات، 1983، ص 290.

27

المنهج الفرضي الاستدلالي ويسمى أيضا في العلوم التجريبية الشرطي الاستدلالي هو المنهج الذي يطرح في البداية قضية أو جملة من القضايا على اعتبارها فرضيات تترتب عنها بالضرورة سلسلة من الاستنتاجات العقلية. ويعد هذا الاستنتاج في العلوم التجريبية، الذي يربط الاستدلال بالتجربة، وسيلة لتحقيق الفرضيات.

أما عند الجغرافيين المحدثين فالمنهج الفرضي الاستدلالي «تحليل ينطلق من نماذج مبنية على فرضيات».

A. Bailly et al, **Les concepts de la géographie humaine,** Paris, Masson, 1984 p.20.

28

المذهب السلوكي أو السلوكية Behaviorisme ou Behaviourisme «إسم مشتق من السلوك ويطلق على النظرية التي وضعها **واطْسن** الأمريكي John B. 1878—1958 Watson عام 1912 إثر اطلاعه على تجارب **بختيرف** و **بافلوف** في دراسة الأفعال المنعكسة الشرطية. وهي تفسر سلوك الإنسان والحيوان بإرجاعه إلى ردود فعل ناشئة عن تأثير الأسباب الخارجية.»

* Torsten Hagerstrand

«والواقع أن السلوكية طريقة علمية ومذهب فلسفي معاً. فهي أولًا طريقة

معلومات دقيقة حول عدد من المؤشرات كالسيارة وحقن الأبقار بالسِّلِّيـن والمزروعات العلفية. ثم انطلق يحدد رقعة انتشارها في القسم الداخلي من منطقة سْكانِيا أي أقصى الجنوب من البلاد وأغناها زراعياً. ويؤول هاچرسترند هذه الخرائط على أساس تسلسل فرضي من حلقتين تقابل كل واحدة منهما مرحلة معينة. فالمرحلة الأولى مرحلة توزيع عشوائي للفلاحين الذين يجلبون الابتكارات الحديثة، ويرى هاچرسترند أن هؤلاء الفلاّحة غالبا ما يكونون على علاقة مع أصحاب الحضر أو بالأوساط المثقفة. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الانتشار ودبيب الأفكار عن طريق المشاهدة والتشبه. ولقد تمكن هاچرسترند، بواسطة وسائل المحاكاة، أن يضع خرائط نظرية جاءت مطابقة للخرائط الأصلية ومصدقة بالتالي الفرض. ولقد كان لهذه الأعمال وقع كبير على الجغرافيا الجديدة. حتى لو لم يحدث ذلك إلا في بداية الستينات وفي مكان غير مرتقب.

علمية لأنها تنسج على منوال العلوم الطبيعية في تطبيق المنهج التجريبي، وتقصر موضوع علم النفس على دراسة السلوك دراسة موضوعية، باعتباره استجابة فسيولوجية لمنبهات خارجة أو نتيجة تأثير متبادل بين الكائن الحيّ وبيئته.

وهي ثانيا مذهب فلسفي ينكر قيمة الاستبطان والشعور، ويرد العمليات الذهنية إلى حركات جسمانية ويقول بالحتمية والتطور، ويرجع السلوك إلى مجرد التكيف الآلي، ويجعل الظواهر النفسية ظواهر ثانونية ناشئة عن أسباب مادية.» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الأول، ص 671.

29

Schaefer ( Fred K. ), **Exceptionalism in geography**, op, cit.

### 2.3 ـ اعتناء بالمنهج واستعارة للنماذج الاقتصادية.

إذا كانت اهتمامات بعض الجغرافيين الأفذاذ قد أرصهت، قبل الحرب، بحدوث شيء ما في الجغرافيا، وإذا أخذ البعض الآخر يلح على مراجعتها وإصلاحها، فإن حركة التجديد لن تنطلق إلا في الخمسينات بالولايات المتحدة وبجامعة سياطل بالتحديد، وذلك بفضل أحد أقطاب الجغرافيا الأمريكية المعاصرة **إدوَرْد أُلمان***. وأُلمان هذا من طينة أولئك الباحثين الموهوبين ذوي الفكر المتوقد والنظر البعيد. ألم يحاول كما حكى هو نفسه وضع نظرية للمكان المركزي قبل أن يطلعه لُوشْ، الذي قدم إلى الولايات المتحدة، على عمله الشخصي ويخبره بأمر كريستَلِر من قبله ؟ ألم يقدم في الأربعينات بمعيه زميله **شاوْنسي هارْس*** تأويلا جديداً حول تنظيم المدينة ؟ ( نموذج المراكز المتعددة ). ثم ألم يهتم كذلك بوضع نظرية المدينة ؟

* Edward Louis Ullman 1912-1976

* Chauncy. D. Harris

ونتيجة لكل هذه التأملات نجده في السنوات الأولى من الخمسينات ينبه إلى إغفال الدور الذي تلعبه العلاقات بين الناس في اختيار المواقع. صحيح أن المدرسة الفرنسية تثير هذا الموضوع، لكن ذلك

لا يعدو مجرد إيحاءات يطغى عليها الاهتمام بمسألة العلاقات مع البيئة. لذا فإن أُلْمان يؤكد على قضية المواصلات ويوجه إليها الاهتمام لكي تصبح مبحثاً رئيسيا وموضوعاً بارزاً في العمل الجغرافي. وتطبيقا لهذا قام أُلمان بدراسة تدفقات السلع بالولايات المتحدة فاستخلص منها فكرتي التخصص والتكامل.

وكان أُلْمان في هذه الحقبة بالذات يتعامل مع كوكبة لامعة من الجغرافيين الشباب الذين استطاع قسم الجغرافيا بسياطل التابع لجامعة ولاية واشنطن استقدامهم[30]. ولا مراء في أن أُلْمان هو صاحب الفكرة التي تقول بتجديد الجغرافيا بجعلها علماً يدرس مظاهر التباعد ودور المسافة. وهذا بالفعل ما عكف على تحقيقه أولئك الباحثون الشبان حيث راحوا يوظفون الاقتصاديات الجغرافية ويطبقونها على الأقاليم، معتمدين في ذلك على فرضيات الاقتصاديين ومنهجهم.

وهكذا خلال بضع سنين فقط، ما بين 1955 و 1960، رسمت معالم «الجغرافيا الجديدة».

ويعتبر كـلَفالْ[31] أن التجديد تم بالرجوع إلى الأصل أي إلى تعميق إرهاصات فدال دُلبلاش، إلا أنه لم يكن تجديداً كاملاً متكاملاً بسبب قصر الاهتمام على عنصر واحد وهو عنصر المسافة. وإذا كان هناك تجديد حقيقي فهو الذي يتجلى في استخدام الأساليب النظرية التي طالما نبذها الجغرافيون، وإن كانت جماعة سياطل لم تجتهد ولم تبتكر في هذا الميدان لأنها وجدت في اقتراحات الاقتصاديين ما يلبي رغبتها ويكفي حاجتها. فهي في رأيهم تقدر على التفسير وتقبل التطبيق. ولا شك أن في هذا شيء من التجوز بل العسف الصريح لأن علم الأقاليم الذي تقتدي به الجغرافيا الجديدة، وإن كان يعطي الصدارة لقضايا النقل، لا يكاد يعبأ بمسألة المواصلات رغم أن السبرنطيقا وأهمية المفعول الرجعي في أمور الحياة الاجتماعية كانا جديرين بلفت الأنظار إلى ذلك.

وخلاصة القول فإن التحولات التي تمت بسياطل بزعامة أُلْمان هي في الحقيقة محاولة أخرى لرفع الجغرافيا إلى مراتب العلم وذلك عن طريق الحسم في قضية المنهج الذي يوفر الوسائل اللازمة فيسمح من جهة

30

من أشهر هؤلاء :

وِلْيَم چَرِسُن **William Garrison**
و رِتْشَرد مُرِلْ **Richard Morrill**
و فرِدْنِسْتُيَنْ **Fred Nystuen**
و برَايَنْ بِرّي **Brian Berry**
البريطاني الأصل.

31

Claval (Paul), **Geographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, p 99.

باستغلال الرصيد الهائل المتوفر من المعلومات، ومن جهة أخرى باختبار الفروض على غرار العلوم التجريبية. وبناءاً عليه فإن الجغرافيا الجديدة أصبحت تعنى بالتفسير المنطقي أكثر مما تعنى بالاسترداد التاريخي الذي طغى على عمل الباحثين حتى الآن، أي أنها تطمح في تقديم تصور نظري للظواهر الجغرافية وللمبادىء التي تساعد على استجلاء بنيتها وفهم حركتها واستنباط منطقها الذاتي. وتحقيقا لهذه الغاية استبدلت الجغرافيا الجديدة المنهج الفرضي الاستدلالي بالمنهج الاستقرائي[32]، الذي قاد الجغرافيا التقليدية. ويعنى هذا أن عمل الجغرافي أصبح عملاً مزدوجاً يشتمل على طرح نظري محض يتبعه اختبار وتجربة بواسطة النماذج[33] المتنوعة تأسيا بالعلوم الطبيعية التي وجدت في هذه النماذج وسيلة ناجعة للإلمام بالظواهر البيئية المتعددة واختزالها.

### 3.3 ـ بين التكميم والتنظير : الجغرافيا «التعميمية»

إن جماعة سِياطل التي تكونت في ظروف خاصة[34] لم تعمر طويلا إذ سرعان ما تفككت فتفرق أعضاؤها في نهاية الخمسينات. فمنهم من التحق بجامعة شيكاچو كبرايَن بِرّي ومنهم من ذهب إلى نُورْث وِسْتَرن. وما هي إلا أعوام قليلة حتى أخذت أفكارهم تنتشر لتغزو جل جامعات مِيدَل وِسْت التي سارعت إلى الترحيب بها نظراً للمناخ العلمي السائد بها والذي تميز كما هو معلوم منذ العشرينات باعتنائه بالقضايا المنهجية من جهة، وباهتمامه بالأسس والمقومات للمادة من جهة أخرى في أعقاب ما جاء به هَرْتشورن من أفكار بين مؤيد ومعارض.

وبسرعة أصبحت الوسائل الكمية تدرس في كثير من الجامعات مثل آيوا و مِشِچان وأُهايو. أما في جامعات الواجهة الشرقية ـ باستثناء جامعة ينسِلفانيا ـ التي لم تكن تتوفر إلا على عدد قليل من فروع الجغرافيا، فهذه الوسائل الجديدة لم تلق نفس الترحاب ونفس التحمس. وهكذا طلعت على الساحة الجغرافية وجوه وشخصيات جديدة منها على سبيل المثال **ماك كارْتي***، الذي ساهم بنشاط في توجيه عدد من المنجزات الاقتصادية بولاية آيو، و **مَايْكَل دَاسِي***، الذي عمل على ربط

32

الاستقراء طريقة يمكن الوصول بها إلى أحكام عامة بواسطة الملاحظة والمشاهدة الحسية، والاستقراء عماد العلوم الطبيعية في وضع نواميسها، وهدفه تكوين حكم عام مبني على حقائق جزئية.

33

النموذج هو : «1 ـ الشكل الذي يحمل أخص الصفات التي يتميز بها معظم أفراد فئة ما، وتعتبر «عينة» مختارة من هذه الفئة وهو بمثابة مثال لها في مجموعها. 2 ـ نمط من العلاقات المتصورة التي يشاهدها الإنسان في ملاحظته للعالم كأنماط السلوك الاجتماعي أو أنماط البناء الاجتماعي ».

«وقد حاول العلم تنظيم الحقائق الخاصة بالمجتمع باستخدام النموذج التطوري والنموذج السببي والنموذج الرياضي. وقد تكون النماذج بسيطة للغاية أو معقدة جداً حيث أن العالم الذي نلاحظه لا يمكن أن نلاحظه بكليته، ولذلك فإن كل نموذج يعكس جانبا محدوداً من العالم بأجمعه. كما أنه لا يوجد نموذج يبين الحقيقة كاملة بل يقتصر على إظهار جانب منها. وتنحصر قيمة النموذج في منفعته في الدراسة وفي وضع النظريات والتفسيرات والتنبؤات وفي التقدم العلمي بوجه عام.» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 272.

34

يذكر پول كلفال عن فرَيزَوْ هارْت Frazer Hart ان تشكيل هذه الجماعة يرجع فضله إلى هودْسَنْ G.D Hudson رئيس قسم الجغرافيا بجامعة سياطل، الذي استطاع بواسطة المنح المغرية والتشجيعات المادية استقدام أولئك الجغرافيين الشباب من داخل الولايات المتحدة وخارجها.

* **Mac Carthy**
* **Michael Dacy**

البحث الجغرافي بالاحصائيات الرياضية و **فالْدو طُبْلِر***، الذي اهتم بتطوير وضع الخرائط بواسطة الوسائل الكمية الجديدة.

* Waldo Tobler

وظهر بجانب هؤلاء الرواد، الذي نشطوا في الخمسينات، جيل آخر من الجغرافيين تألق فيه اسمان بارزان : **پيتَرْ جولْد*** و **وِلْيَم بُنْجي**. والحقيقية أن أغلبية هؤلاء الباحثين يكتفون بتوظيف النظريات المكانية التي يضعها علماء «الاقتصاديات الاقليمية» ( علم الأقاليم ). لذا فإن عملهم عمل منهجي أكثر مما هو عمل تنظيري. صحيح أن بُنْجي نشر سنة 1962 كتابا تحت عنوان «الجغرافيا النظرية»[35]، وهو الكتاب الذي لاقى الترحيب والاستحسان، لكن هذا المؤلف، رغم عنوانه الجذاب ورغم النظرية التي جاء يعرضها، لم يهتم بما فيه الكفاية بتحليل السياقات الاجتماعية والاقتصادية في بعدها الجغرافي، بل قدم تفكيراً منهجياً حول الخصائص الهندسية للأنظمة الطبيعية والاجتماعية أكثر مما حلل طرق وأساليب استغلالها. وبعبارة مختصرة فإن بُنْجي اعتنى بالمظهر أكثر مما اهتم بالمخبر.

* Peter Gould

35

Bunge ( William ), **Theoretical geography**, op. cit.

وهذه الأبحاث التي ينجز جلها في سياق النزعة الاقليمية السائدة أفادت بالدرجة الأولى الدراسات الحضرية التي ظلت موضوعاً غير متماسك لم يحظ بعد بالعناية الكافية. فالباحث فيه لا يتوفر على تصور شمولي ومبادىء واضحة. وانلاطاقا من نظريات قديمة كنظرية المكان ونظرية الأساس الاقتصادي للمدينة ونظرية المضاعف الحضري[36] تجددت دراسة الشبكات الحضرية. وبجانب هذا قام برايَنْ بِرّي بتحليل بنية الحواضر الكبرى ملتقيا بذلك بالاهتمامات البيئية الاجتماعية التي شغلت پارْك وبرْجَس من قبل في العشرينات. وبفضل وسائل التحليل العاملي[37] استطاع بِرّي ومساعدوه من الحصول في ظرف وجيز على نتائج هامة سمحت بطرح جديد لمسألة مواقع الأنشطة، وخاصة منها المُكاسرة ( التجارة بالتقسيط ) وتوزيع الفئات الاجتماعية داخل المدينة.

36

نظريتا الأساس والمضاعف نظريتان اقتصاديتان تطبقان على المدينة وتعرضها بتفصيل أدبيات الاقتصاد وبعض المؤلفات الجغرافية. راجع العرض الوجيز الذي يقدمه **أنطوان بَيّي Antoine S. Bailly** في كتابه :

**L'organisation urbaine, théories et modèles,** Centre de Recherche d'Urbanisme, Paris, 1975, p. 73-78.

37

التحليل العاملي تقنية إحصائية تهدف إلى اختزال كمية من البيانات بعد إقصاء المعلومات المتكررة والابقاء على المتغيرات الدالة.

ولما انعقد المؤتمر الجغرافي الدولي سنة 1960 بستكهولم نظمت ندوة خاصة بالجغرافيا الحضرية بمدينة لُنْد حضرها جل الباحثين الأمريكيين المهتمين بالتمدين، الساهرين على أمر تجديد المناهج وتطوير

الأفكار. ولقد كان هذا اللقاء فرصة سانحة جمعتهم بزملائهم البريطانيين والسويديين، كما اطلع الجميع عن كثب على أعمال هجر سترند حول مفهوم الانتشار واستعمال وسائل المحاكاة في البحث.

ولقد وجدت هذه الأفكار الجديدة صدى عميقا في بريطانيا خصوصا عند الشبان الذين أخذوا يهتمون بالسبرنطيقا والمحاكاة والرياضيات. ولقد برز من بينهم بوجه خاص : **پيتَر هاجِتْ*** و **مايْكَل شِيشُلْم*** و **رِتْشَرد شورْلي**، الذين قادوا «التيار النظري الرياضي» وطعموه بمؤلفات حاسمة[38].

إن رياح التجديد التي اجتاحت العالم الانجلسكسوني فأثارت الزوابع ونفضت الغبار عن الجغرافيا التقليدية هبت نسيما على البلدان الأخرى التي لن تتأثر بلقاحها إلا بالتدريج. وكان البولونيون أول من تفتح في أوروبا الشرقية على هذه المستجدات وظلوا على ذلك إلى غاية السبعينات تقريبا، وإن كانت اهتمامتهم تعنى أساسا بالمدن وقضايا العمران. أما في باقي الغرب فإن الوضع يختلف من مكان إلى آخر علماً بأن الصبغة الوطنية والمنهج الاقليمي وتحليل المشهد كلها تصورات تتعارض تعارضاً تاماً مع النظرة الجديدة للبحث الجغرافي. لكن بعض الباحثين من الشباب أخذوا في الستينات يتفتحون على التيار الجديد. وهكذا وضع **دِيَترش بَرْطَلْس*** الجغرافيا التقليدية في الميزان ثم انصرف إلى الاهتمام بمقومات الجغرافيا العصرية وأسسها، فكانت له اجتهادات منهجية لا تنكر. أما زميله **جِرْهَرْد هارْد*** فهو يستعين باللسانيات من أجل تعميق مدلول مفهوم «اللاندسكيب».

أما في فرنسا فإن حركة التجديد تمت على مرحلتين. ففي أوائل الستينات صار عدد من الباحثين كذلك ينهل من معين النظريات الاقتصادية، إلا أن مرجع الجغرافيين الفرنسيين لم يكن لُوشْ أو إزَرد وإنما أعمال كلُود بُنْصار[39] أو الأبحاث الخاصة بالنماذج الحضرية المبنية على مفهومي الأساس الاقتصادي والشبكة الحصرية ( التنظيم الهرمي للمدن )[40]. كما أن هناك من حاول الاستفادة من أبحاث اقتصاديين فرنسيين آخرين اهتموا بتفاوت التنمية وأقطابها الجهوية وقضية الوفورات[41].

38

من أهم المؤلفات التي وضعت في هذه الحقبة وما تزال توجه تفكير عدد من الجغرافيين عبر العالم :

Chisholm (Michal), **Rural scettlement and land use,** London, Hutchinson University. Library, 1962.

Chorley ( Richard ), **Geomorphology and general system theory,** U.S Geological Survey, Professional Paper, 500, B, 1962.

Haggett (Peter) **Locational analysis in human geography,** London, Edward Arnold, 1965.

Chorley (Richard), Peter Haggett (edit) **Frontiers in geographical teaching,** London, Methuen, 1965.

Chorley (Richard) Peter Haggett (edit.) **Models in geography,** London, Methuen, 1967.

* **Peter Haggett**
* **Michael Chisholm**
* **Richard Chorley**
* **Dietrich Bartels**
* **Gerhard Hard**

39

Ponsard (Clande) **Economie et espace,** Paris, S.E.D.E.S, 1963

40

من الأعمال التي تعكس هذا الاهتمام مثلا كتاب :

Pinchemel (Philippe), **Le fait urbaine un France,** Paris, A. Colin, 1963.

41

من أبرز الباحثين الاقتصاديين الذين

أما الوسائل الكمية فإن استعمالها لن يشيع إلا بعد سنة 1968 في أعقاب الاصلاحات الجامعية التي ترتبت عن انفجار الأزمة الاجتماعية الحادة التي هزت البلاد في هذه السنة. لكن هذا الاتجاه سيبقى رغم ذلك نظريا أكثر منه كمياً بالمعنى الحقيقي بالمقارنة مع البلدان الأنجلو سكسونية. هذا وتجدر الإشارة إلى أن «العدوى» جاءت وتوطنت هنا عن طريق كِبيك التي عمل بها جماعة من الأساتذة الفرنسيين ما بين سنتي 1960 و 1970.

إن النجاح البين الذي حققته حركة التجديد في نهاية الستينات حمَّس أنصار الاصلاح وشجعهم على نشر أفكارهم وشرح آرائهم عبر إصدارات متخصصة. وهكذا طلعت الجغرافيا على الناس عامة، والمحافل العلمية خاصة بوجه جديد كل الجدة. وبهذا الصدد يعد المقال الذي كتبه پيتر چولد[42] مقالًا حاسماً جاء ليعرف بالجغرافيا في جميع الدوائر الثقافية والعلمية بالولايات المتحدة.

ولا شك أن هذه التحولات بحجمها وسرعتها تبعث على الدهشة والاستغراب، لذلك ساد الشعور آنذاك باندلاع ثورة علمية حقيقية تخطو بثبات خطواتها الأخيرة نحو النصر والتفوق. والجيل الذي يصنع هذه الثورة هو الآن في طور النضج ويتأهب في مطلع السبيعنات إلى إقامة صرح جغرافي جديد والدخول – بعد حالة تأزم كما يقول طُماس كُون – في مرحلة التطور «العادي» على هدي نظرية نموذجية جديدة. وفي هذا السياق بالذات تندرج مساهمة دَيفَد هارفْي الذي استند إلى الإبستمولوجيا الوضعية الجديدة، فراح يبرر الوجهة الجديدة ويدافع عنها حتى بدت الجغرافيا الجديدة مكسباً لا رجعة فيه.

لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فمعظم الجغرافيين ما يزالون يباشرون العمل كالمعتاد. زد على هذا أن أغلبهم ليسوا على استعداد فكري لمراجعة تصوراتهم وطرق عملهم، وهي لا شك مراجعة لا يقوى عليها إلا أولو العزم. كما أن البعض لم يطق اطلاقا هؤلاء «المجددين» المتشدقين الفرحين بما لديهم والراضين على أنفسهم ! وكيفما كان الحال فلا أحد يستطيع نكران الأيادي البيضاء التي أسدتها الجغرافيا الجديدة ولو اقتصر الأمر فقط على تنشيط المناظرة وإذكاء الحوار بين الجغرافيين، إذ

أغنوا العمل الجغرافي في فرنسا خلال الستينات.

Boudeville (Jacques), **Problems of regional economic planning,** Edinburgh University Press, 1966; id **Aménagement du territoire et planification,** Paris, M. Th. Génin et Litec, 1972.

Perroux (François) **La notion de pôle de croissance, Economie appliqué,** vol. 8, 1955.

42

Gould (Peter), **The new geography : Where the action is,** Harper's Magazine, 1968.

أقدم البعض على النظر مجدداً في المادة، محاولًا التوفيق بين الحاضر والماضي؛ هذا في الوقت الذي ظهرت فيه عدة تيارات موازية.

### 4.3 ـ الجغرافيا بين المذهب السلوكي والتوجه الاجتماعي

لما جعلت الجغرافيا من الوضعية الجديدة مرجعها الفلسفي ومن الاقتصادي معينها النظري انصهر فكرها في قالب ضيق جداً ليس بوسعه أن يستوعب كل القضايا الجغرافية التي أصبحت المسألة الاقتصادية تشكل محور رحاها. ولا شك أن هذا الاختزال لقضية غاية في التشعب وتبسيطها وعرضها بواسطة التكميم – كما حدث في كل العلوم الاجتماعية بدون استثناء – هو الذي يفسر بالدرجة الأولى تفوق الجغرافيا الجديدة وإقبال المهتمين عليها. ومع ذلك ورغم التحصن بالمنهج العلمي فإن الجغرافيا الجديدة معرضة للهجوم والطعن.

#### 1.4.3 ـ النزعة السلوكية

إذا كان السواد الأعظم من الباحثين الأمريكيين يأخذ بالنماذج الاقتصادية المهيمنة، على عواهنها، ليطبقها بحذافرها دونما تمحيص وتقليب فإن البعض الآخر التزم الحذر والحيطة لاعتبارهم تلك الفروض فروضاً لا تطابق الواقع إذ تتنافى مع حركة المجتمع. فهل يعقل مثلا أن نفترض أن الناس يقررون في مختلف شؤونهم وهم على بينة تامة من كل الامكانات المتاحة ؟ وهل صحيح أنهم يسعون كلهم دائما إلى تحقيق الربح الأقصى ؟ وهل صحيح أيضاً أن الزبناء يحتاطون دوماً للتقليل من التنقل لتقليص كلفته والحصول مقابل ذلك على قدر أكبر من السلع والخدمات ؟ أفلا يجمل بنا، على حد قول المعارضين، قبل الأخذ بهذه الفروض الضمنية التي يتركز عليها الاقتصاد الجغرافي، أن نهتم أولًا وقبل كل شيء بسلوك الناس والاطلاع على أفعالهم عن كثب ؟

ومن المعلوم أن هذه الانتقادات التي أصبحت توجه إلى النماذج الاقتصادية التقليدية تنساق في تيار السلوكية التي تقوت في الخمسينات. ولم يجد الجغرافيون الأوائل الذين ساروا في هذا الركب أدنى مشقة لإثبات

نسبية «عقلنة» القرارات التي يتخذها الناس[43]. وهكذا فتح المجال لتساؤلات أخرى مفادها أن القرارات تؤخذ على أساس تصور الواقع أكثر منها على الواقع نفسه[44]. ويعني هذا أن على العلوم الاجتماعية ألّا تغفل مسألة الادراك، بل عليها أن تجعل منها إحدى اهتماماتها الكبرى. ولتحقيق هذه الغاية صار الباحثون يسترشدون علم النفس مطبقين منهجه، مستعرين نماذجه.

ولا شك أن اجتهادات پيتر چولد، الذي ابتكر طريقة بسيطة لوضع الخرائط الذهنية عرفت نجاحاً كبيراً، عملت على تقوية التيار السلوكي ضمن البحوث الجغرافية[45]، خاصة وأن الدراسات السلوكية قد أبانت على قدرتها في إلقاء ضوء جديد على موضوع توزيع الخدمات. لكن معظم الجغرافيين الذين انساقوا وراء المذهب السلوكي لم يدققوا النظر فيه حتى يعلموا أنه لا يكترث كثيراً لقضية التنظيم الاجتماعي، بل ساد الاعتقاد لديهم أن السلوكية لا تعدو مجرد تعديل طفيف للنماذج الاجتماعية المعمول بها، بينما هي في الحقيقة فلسفة ذات تصور اجتماعي معين.

وبجانب هؤلاء الجغرافيين السلوكيين الذين جعلوا من الادراك الحسّي قضيتهم الكبرى، هناك جماعة أخرى سارت على نفس المنهج، وإن اختلفت الغاية. فهؤلاء استهوتهم تحليلات **كِفِن لِنْش***[46] إذ رأوا فيها وسيلة مفيدة لدراسة الحيز الحضري؛ بينما انصرف فريق ثالث، ومن نفس المنطلق، يبحث عن أسباب إخفاق سياسات الوقاية من الكوارث الطبيعية التي يكمن في رأيهم في التمادي في الثقة بالنفس لدى المسؤولين.

### 2.4.3 ـ علامات المنحى الاجتماعي

أما في بلدان أوروبا الغربية فالموقف يختلف تماماً، فالباحثون هنا، بخلاف زملائهم الأمريكيين، لا يعيبون على الاقتصاد ونماذجه إغفال الجوانب النفسية، بل يرمونه بعدم الاهتمام الكافي ببعض الآليات الفعالة المنظمة للمجتمع. أما المال، وإن كان أحد لا ينكر أهميته، فهو لا يمثل أكثر من عنصر من جملة عناصر أخرى يقوم عليها بناء المجتمع وتلاحمه

43

Wolpert (Julian), **The decision process in spatial context,** Annals, Association of American Geographers. vol 54, 1964, p. 537-558.

44

Boulding (Kenneth), **The image, knowledge and life in society,** Ann Arbor, University of Michigan Press, 1955.

45

Gould (Peter), Rodney White, **Mental maps.** Harmonds worth, Penguin Books, 1974.

46

Lynch (Kevin), **Limage de la cité,** Paris, Dunod, 1971.

* **Kevin Lynch**

كدور الحظوة والنفوذ داخل المجتمع وأشكال التنظيم التي توجه الحركة البشرية.

سواء أقررنا بحدوث ثورة أو لم نقرر فإن الستينات ستظل تمثل بالنسبة للجغرافيا منعطفاً خطيراً رافقته تطورات هامة. فالجغرافيا الجديدة التي أخذت تتشكل على النموذج الذي اعتبره المذهب الوضعي الجديد نموذجاً عاما ليست علماً اجتماعياً بالمعنى الصحيح. فهي لا تعير الظواهر الاجتماعية ما تستحقه من اهتمام وعناية، وإن أولت بعض الانتباه إلى مسألة الادراك الحسّي التي لم تتناولها بعمق ومع ذلك فإن الجغرافيا لم تبرح حظيرة العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل تلتقي ببعضها أحيانا كعلم النفس والاقتصاد نظراً للتكامل الحاصل بينها في طرق البحث. إلا أن هذا الانتماء يبقى انتماءاً «فطرياً» يغيب فيه الشعور بالموضوع وتنعدم فيه الأهداف.

فلا غرابة إذن إذا كان هذا البنيان هشّاً، معرضاً للانهيار، رغم أنف من أقاموه.

فها هي ذي السبعينات حبلى بالأحداث !